مجلة الحوار الفكري ISSN: 1112-5144
مجلد: 19عدد: 01 السنة 2025 EISSN :2600-6332

ملاحظات جديدة للتعريف بسكان بلاد قمنورية في صحراء المثلمين خلال العصر الوسيط

New notes on the identification of the inhabitants of the Qumnuriyya region of the

د. محمدو ولد محمد فال، باحث في التاريخ الوسيط – موريتانيا، mdoummvall12@gmail.com

تاريخ الارسال: 2025/04/12 تاريخ القبول: 2025/04/29 تاريخ النشر: 2025/06/11

ملخص:

ملخص

تحدثت المصادر العربية الوسيطة وأبرزها الإدريسي وابن خلدون بشكل لافت – وإن كان جد مختصر – عن وجود بشري مكثف تمثل في قرى ومدائن مزدهرة تحت مسمى (بلاد قمنورية) تأسست على حيز جغرافي واسع في صحراء الملثمين خلال العصر الوسيط، في تجربة كانت نهايتها تراجيدية بالقضاء على أصحاب تلك البلاد من قبل جيرانهم الذين تكالبوا عليهم مصممين على عدم إلقاء السلاح حتى القضاء المبرم على دولتهم.

وما يهمنا في هذا البحث هو محاولة وضع كل ذلك في سياق البحث التاريخي لمعرفة دلالاته ومآلاته، مع تسليط الضوء في ملاحظات جديدة على هوية سكان بلاد قمنورية تلك، من خلال نقاش حصيلة البحث العلمي حولهم، وما يمكن أن تفيد به في سبيل حصر الاحتمالات القائمة بخصوص كل محدد من محددات هويتهم منفردا، ومجمل المحددات مجتمعة، وذلك لإعطاء جواب مؤسس له حول تلك الهوية أو تعميق إشكالها إن تعذر الأمر حاليا.

الكلمات المفتاحية: بلاد قمنورية – صحراء الملثمين – البافور – النمادي – إيمراكن.

Abstract

Medieval Arab sources, most notably Al-Idrisi and Ibn Khaldun, spoke remarkably—albeit very briefly—about a dense human presence represented by prosperous villages and cities under the name "Bilad Qumnuriyya," established over a vast geographical area in the Mulathmin Desert during the Middle Ages. This experience ended tragically with the annihilation of the inhabitants of these lands by their neighbors, who

conspired against them, determined not to lay down their arms until their state was completely destroyed. What concerns us in this research is an attempt to place all of this within the context of historical research to understand its implications and consequences, while shedding light, through new observations, on the identity of the inhabitants of these lands of Qumnuriyya. This discussion examines the results of scholarly research on them and what it can provide to narrow down the possibilities regarding each of the determinants of their identity individually, and the overall determinants combined. This is intended to provide a well-founded answer to this identity, or to deepen the debate about it, if this is currently impossible.

Key Words: The land of Qumnuriyya - The Desert of the Masked - The Bafur - The Namadi – Imaraken.

تقديم:

نحن نبقى مدينين للإدريسي بشكل كامل بأهم المعلومات المتوفرة لنا حتى اليوم عن (بلاد قمنورية)، حيث بقي ما جاء به عنها من دون إضافة من قبل مجمل معاصريه واللاحقين عليه. خصوصا في الجوانب المتعلقة بموقع ومستوى عمران وازدهار وعلاقات أهل تلك البلاد بجيرانهم.

ويحاول هذا البحث التوقف مع مجمل الأطروحات التي عرضها المؤرخون القدماء والباحثون المحدثون عن سكان قمنورية في العصر الوسيط والأمور المرتبطة بهويتهم من لون بشرة وأصل عرقي ومعتقد، مع ما ذهبوا إليه من تعريف بالجماعات التي مثلت أسلافا لهم في عصور سابقة أو الجماعات المنحدرة منهم لاحقا.

كما سيكون علينا السعي إلى تسليط الضوء على أهم نتائج العمل البحثي فيما يخص كلما هو مرتبط ببلاد قمنورية أو ما يمثل امتدادا لأحد الجوانب المرتبطة بها، وذلك بقصد الاستفادة منه ما أمكن في تعميق البحث في هوية سكان تلك البلاد، وفي فهم الملابسات التي أثرت في ماضيهم وحاضرهم خلال العصر الوسيط.

1 – الموقع:

نقل الادريسي تسمية قمنورية عن بطليموس، الذي أطلق هذا المسمى على شعب الجارامنت الذين هاجروا من جرمة في ليبيا وأسسوا بعض الممالك في الصحراء، واستقروا في منطقة آدرار في شمال غرب مورتانيا الحالية وتركوا هنالك رموسا تعبر عنهم .

وتقع أرض قمنورية في منطقة صحراء الملثمون وبالتحديد في الجهة الشمالية الغربية حيث تبقى حسب الإدريسي محصورة في جهة الشمال منها بين المحيط الأطلسي وصحراء نيسر، أما من الجنوب فتبقى بحسب ابن خلدون تحدها كل من (بلاد غانة ومجالات زغاوة) .

ويتضح من وصف حدود بلاد قمنورية من الشرق أنها تبقى مطوقة بصحراء نستر بما فيها من مفارز ومجالات للملثمين، بمعنى شموليتها للمناطق التي تسيطر عليها لاحقا قبائل صنهاجة في هذه الصحراء بعد تمكنها من طرد سكان قمنورية من مجمل أراضيهم.

وتفيدنا بعض المعطيات المحددة للمسافة بين قمنورية وبعض المراكز المحيطة بها في وضع تصور أولي عن موقع هذه البلاد وضبط حدودها بشكل تقريبي من الجهات الرئيسية الثلاث المفتوحة على الشمال والشرق والجنوب وذلك عكسا على الجهة الغربية التي هي مغلقة بالبحر المحيط. حيث حدد الادريسي بعدها من سلي وتكرور بستة عشر مرحلة، وعن سجلماسة ب 24 مرحلة .

وربما تسمح لنا المعطيات السابقة أن نحدد موقع بلاد قمنورية بأنه موجود إلى الغرب من صحراء نيسر وحتى المحيط الأطلسي لتشمل بالأساس إلى جانب الجزء الغربي من ولاية آدرار الموريتانية بمنطقته الجبلية، كلا من ولاية إنشيري وولاية اترارزة بموريتانيا، وذلك حتى نحترم مجمل المحددات الجغرافية المذكورة في وصف الإريسي وابن خلدون لحدود بلاد قمنورية.

فيما يمكن أن نتصور امتداد بلاد قمنورية إلى الجنوب على أساس ما ذكره الإدريسي ببعد بلاد قمنورية عن بلاد التكرور (التي كانت واقعة على نهر السنغال الحالي) بإثني عشر مرحلة، ليغطي هذا الامتداد مساحة تصل حتى منطقة العرية في شمال ولاية الترارزة حيث تفيد روايات بوجود آثار قديمة وحتى فترة غير بعيدة تعود لمجموعة سوادين شبيهة بتلك التي تحدث عنها الإدريسي حين نعت سكان قمنورية بأنهم سودان.

وما يمكن أن نفهم من الملابسات التي قدمها الإدريسي لوجود مكثف لمدن وقرى كثيرة وعامرة في بلاد قمنورية قبل محقها بسبب الحرب مع جيرانهم الممحونين منهم، أن المنطقة الأصلية لبلاد قمنورية كانت واسعة وبما جرى معه قضمها من قبل مجموعات وازنة دخلت في صراع مرير مع سكانها أبرزها قبيلة لمتونة التي يحدد أنها كانت تضغط عليها في حربها المستعرة معها من جهتي يمكن أن نفهم أنهما الشرق والشمال، وذلك قبل أن تنهي لمتونة المواجهة مع القمنوريين باستيلائها على كامل مناطق بلادهم، وهو إجراء يبدو أنه تم بالتدريج وربما استغرقت الحرب معه عقود كثيرة بسبب قوتهم وكثرتهم، بما يمكن أن نفترض معه – على ضوء قول الإدريسي (فأفنتهم الأيام وتوالت عليهم الفتن والغارات من جميع الجهات فقلّوا في تلك الأرض وفرّوا عنها واعتصموا في الجبال وتفرقوا في الصحارى ودخلوا في ذمة من جاورهم وتستروا في أكنافهم فلم يبق من أهل قمنورية إلا قوم قلائل متفرقون في تلك الصحارى وبمقربة من الساحل) — أن الحرب بين الطرفين دامت من بدايتها وحتى انهيار مقاومة أهل قمنورية وتشتت من بقي منهم شذر مذر، فترة تزيد على القرن أو أكثر.

والظاهر أن بقايا سكان قمنورية الذين قدر لهم النجاة بأنفسهم بعد خسارتهم لحربهم وتدمير مدنهم العامرة والكثيرة وأهمهما العاصمة قمنوري والمدينة نغيرا، قد فروا في أعداد قليلة تفيد استماتتهم في القتال ضد أعدائهم وذلك في جهات مختلفة، حيث اتجهت إحدى تلك المجموعات إلى الشرق لتعتصم بمهامه الصحراء في منطقة الحوض ، بينما اتجهت الثانية بعيدا الى حدود الجهة الغربية لبلادهم لتستقر في تجمعات صغيرة على المحيط الأطلسي، في حين فرت مجموعة ثالثة في اتجاه نهر السنغال وعبرته لتستقر خلفه .

2 – السكان:

يطرح التعرف على السكان الحقيقيين لبلاد قمنورية إشكالا عن الطريقة المثلى لتحديد هويتهم، وهل يتعلق الأمر بمواصفات موحدة في اللون والدين والعرق لمجموعة منسجمة أو بمواصفات متحولة لمجموعة غير متجانسة التأمت على فترات طويلة وفق صيغة متبدلة ومختلفة في اللون والمعتقد والعرق ليجمعها الاندماج في بلد واحد، وبما سيصعب معه التعرف

على حقيقتها وتطورها وأصلها الحقيقي، في معطى سيدفعنا للتعامل معكان قمنورية إلى تفكيك الإشكال على محددات: اللون والدين والعرق.

أ – اللون:

نظل هنا أمام موقفين أو لنقل بصفة أدق أمام موقف وقراءة خاصة له، حيث نقصد بالموقف ما يمكن ان يرتبط بتحديد لون بشرة سكان قمنورية، سواء من خلال المصادر الوسيطة أو من خلال الروايات الشفهية المتداولة، حيث نبقى هنا أمام رأيين مختلفتين في المصدر ومتحدين في النتيجة، ذلك أن الصيغة التي أوردهاالادريسي عن سكان قمنورية تبقى تؤكد امتلاكهم لبشرة سوداء ما دام يقول (وأما أرض قمنورية المذكورة فكانت بها مدن للسودان مشهورة وقواعد مذكورة) ، حيث يبقى من الجلي هنا باستخدام معطى (السودان) أننا أمام مجموعة من الزنوج.

في حين تؤكد الرواية الشفهية التي نقلها محمد بن أحمد يورة عن سكان موقع اوليكات الذين يعود إليهم بناء الساقية المشهورة فيه على شكل فجارة، أنه موقع كان من سكانه الأول السود مع ربط العمل بهم .

أما القراءة المفسرة للموقف الذي ساقها الادريسي عن سكان قمنورية من السودان، فهي صيغة قال بها الباحث الموريتاني الناني ولد الحسين حيث ذهب فيها إلى أن وصف الإدريسي لسكان قمنورية ب(السودان) لا يعني بالضرورة سواد بشرتهم، وذلك من خلال قوله (لا يعني الادريسي بعبارة مدن للسودان أن أهل بلاد قمنورية كانوا من السودانيين، لأن الادريسي وغيره من الكتاب المسلمين في العصر الوسيط لم يكونوا في الغالب يميزون بين الاجناس البشرية على أساس اللون، وإنما كان معيارهم الرئيسي النسب، ومما يدل على ذلك أن الادريسي أطلق اسم السودان على مجموعة من البربر وعلل ذلك بقوله:.. وأهل بغامه سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم ولسانهم لسان البربر، وهو قوم رحالة) .

وقد لجأ ولد الحسين الى هذا الرأي في معرض محاولاته لجعل أهل قمنورية مطابقين لمجموعة البافور التي كانت تقيم في آدرار في العصر الوسيط، حيث يذهب في إطار معارضته لزنجية البافور الذي يعني ضمنا معارضة زنجية أهل قمنورية أنه إذا كانت الروايات المحلية مختلفة، بل ومتناقضة في عرضها للمعلومات القليلة المتعلقة بالفابور، فإنها تجمع على أنهم لم يكونوا زنوجا، وان كانت قد ظلت عاجزة عن تحديد الجنس البشري الذي ينتمون إليه، مكتفية بتحديد لون بشرتهم الذي يتأرجح ما بين البياض والحمرة .

وواضح أننا هنا أمام معطيات يهتم ذلك الباحث بعدم التعارض معها وتفسير مختلف المعطيات لتتماشى معها، حيث يقدم هنا الاهتمام بالبافور واستخدام سكان بلاد قمنورية كامتداد لهم أو العكس على غير ذلك، وبما يجعله بالتالي يركز فقط على التوفيق بين بشرة المجموعتين! .

ب – الدين:

نحن هنا أمام عدد من الأقوال التي يفيد بعضها اعتبار أهالي قمنورية يهودا في الأَصل أو عن طريق تغيير المعتقد، فيما يصرح البعض بيهودية أهل قمنورية لكن بصيغة تفيد التشكيك في هذا المعطى ومن دون أن يطرح الموردين لها بديلا له، أو على الأصح اللجوء بدل ذلك لإيراد سبب وجيه محدد يدعم موقفهم المشكك في صحة معطى تلك اليهودية.

–موقف القطع بيهودية أهل قمنورية:

نبقى هنا فيما يعني القطع بأصل يهودية أهل قمنورية أمام صيغتين: صيغة تذهب مباشرة للقول بيهودية أهل قمنورية، وذلك مقابل صيغة أخرى تحاول التوصل لنفس النتيجة بجعل أهل قمنورية يهودا من خلال مطابقتهم بالبافور، وذلك طبعا بعد محاولة البرهنة على كون البافار يهودا، حيث يظل من أشهر القائلين بالموقف الأول ليهودية أهل قمنورية الباحث ويندسور من خلال قوله بانتشار اليهود في عدد من المناطق الساحلية والداخلية بالصحراء والسودان مع تأسيسهم لما أسماه ب(الممالك العبرية) في غانة وقمنورية وملم التي تحدث عنها الادريسي ، وبما يجعل معه لليهود حضورا بارزا على جميع الطرق التجارية الموصلة إلى السودان الغربي .

ويدعم الطرح الذي ذهب إليه ويندسور باحثون آخرون أهمهم أوليئيل الذي يركز على وجود دور تجاري مهم لليهود في منطقة الصحراء وبلاد السودان منذ القرن الرابع للميلاد . معتبرا أن قدوم المسلمين للمنطقة وسيطرتهم على قواعد اليهود في قمنورية وملم وليمي وغيرها كانت بهدف منافستهم على أهم دور أسسوا لهم في صياغة الذهب والمتاجرة به عبر التجارة الصحراوية وأوسع نطاق ممكن وذلك من خلال الاستقرار بالقرب من مناجم استخراجه في مراكز تجارية عديدة .

وطبعا يحاول من ذهب إلى يهودية أهل قمنورية من الباحثين الذين هم في مجملهم باحثون غربيين ويهود، دعم دعاويهم بما ورد من وجود قديم لليهود بالصحراء حسب المصادر العربية وأهم ما أورده العبراني في رواية انفرد بها حيث قال:(وأما أهل الصحراء فهم من نسل سيز جوج بن طيراق اليهودي، أصلهم من خيبر) ، وكذا بتصريح تلك المصادر بيهودية أهل قمنورية في بعض الأحيان بصراحة ومن غير مواربة ومن دون لبس أو تشكيك كما نجده لدى الحميري في قوله (وأهل بلاد قمنورية يذكر التجار أنهم يهود) .

كما يتماشى القول بيهودية أهل قمنورية مع ما ذهب إليه سترابون من انتشار اليهود في القديم على نطاق واسع بما في ذلك مختلف مناطق شمال افريقيا، حيث يذكر أنه (لا تخلو منطقة على الأرض لا و اليهود عليها) ، ومع ما تقول به

أسطورة إلداد الداني من وجود مملكة يهودية في الغرب الإفريقي سيكون اعتبارها قمنورية – التي أهلها يهود أو يذكر عنهم ادعاؤهم لذلك كما عند الادريسي والعمري والحميري– في نظرنا أكثر وجاهة مما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين واليهود من القول بأسقاط المملكة اليهودية الافريقية على دولة أودغست الصنهاجية والتي هي مملكة إسلامية بامتياز . مع ما يدعم كل ذلك من حديث المؤرخين عن وصول هجرات يهودية متعددة إلى جنوب المغرب الأقصى بداية من القرن العاشر قبل الميلاد مع زيادتها خلال الفترة ما بين ق6 ق م والقرن 4 ق م ، وهي الهجرات التي يرى الباحث ماني استقرار بعضها في مناطق انتشار البافور المرتبطة بهم في منطقة آدرار الموريتانية ،

اما الموقف الثاني فيمثله الباحث الموريتاني الناني ولد الحسين الذي ذهب الى اعتبار البافور يهودا مع تقرير أنهم هم أنفسهم المقصودون بأهل قمنورية. حيث يوظف هذا الباحث عددا من الأقوال الداعمة لرأيه بيهودية البافور، والتي من أبرزها ما ساقه باحث موريتاني عتيد هو محمذن ولد باباه من الذهاب إلى أن البافور ليسوا سوى مجموعة من يهود وادي نون نزحت إلى آدرار خلال فترة زمنية غابرة .

في حين يبقى من الأقوال التي تتسق مع هذا الرأي الثاني ما يراه ماني من ارتباط البافار سياسيا بالمجموعات اليهودبة الأخرى بمنطقتهم، حيث يصرح في هذا المجال بتبعية رئيس البافور لملك يهودي كان يحكم بوادي نون وذلك بعد أن كان أسلافه هم من يتبع للبافور .

أما الموقف الثاني والقائل بتحول أهل قمنورية إلى اليهودية من دون دين آخر سابق عليه كانوا يدينون به، فهو موقف لا بد أن نقرنه بمحدداته من حيث الظروف والشروط الموضوعية التي تدفع المجموعات والأفراد الى تغيير دينها خوف الاضطهاد أو رغبة في تحصيل مكاسب معنوية أو مادية، وهي ظاهرة يمكن ان تكون متتابعة بتتابع الحقب والمؤثرات.

وفي هذا الإطار ومن داخل دائرة القائلين بأن البافور هم سكان قمنورية، نجد ما يمكن أن يؤسس لذلك من وجود لمجموعات من زناتة تختلط مع اليهود في الصحراء والسودان ، فيما نجد كذلك من يذهب حتى لاعتبار البافور مجموعة من زناتة متهودين في الصحراء ، فيما يتفق مع ما ذهب إليه البعض من أن البافور ينحدرون من زناتة .

ويربط عدد من الباحثين بين معطى الصعوبة التي وجدها الباحثون في الحصول على معطيات تبرهن على صحة ما هو وارد في بعض المصادر من حضور يهودي في الصحراء – وهو حضور يضخمه القائلون بقيام ممالك يهودية في العديد من مناطق الصحراء والسودان شملت قمنورية وملم وليمي . وتندرمة وغانة – وبين الإكراهات التي تجبر على تغيير الدين، حيث نجد من يتحدث عن وقوع المهاجرين العبرانيين تحت هذا الإختبار وبقسوة في أكثر من منطقة في اسبانيا والمغرب وامبراطورية السونغاي ، وبما قاد إلى أن يصبح اليهود مسلمين وفي نفس الوقت محتفظون بهويتهم الخاصة . في ظل من كان يجد نفسه منهم مجبرا على التنكر لدينه واعتناق الإسلام طوعا أو كرها، مع ما يرافق ذلك من صيغ من قبيل اندماج بعض اليهود في مكونات إسلامية محلية والذوبان فيها حيث يتعلق الأمر بالأساس هنا بتماهيهم في قبائل الفولاني والوُلوف والسوننكي .

موقف عدم القطع بيهودية أهل قمنورية:

وجد من المؤرخين من أورد موقف من يعتبر أهل قمنورية يهودا بصيغة مشككة، ومن دون أن يؤكد هذا الزعم أو يدعمه، أو حتى يكلف نفسه مناقشته ليفيدنا ببعض المعلومات الجديدة عنهم مما لم يورده لنا الإدريسي، ومن ذلك ما ذهب إليه هذا الأخير نفسه حيث أورد صيغة غير قطعية ليهودية سكان قمنورية بقوله (وأهل بلاد قمنورية فيما يذكره التجار يدعون أنهم يهود وفي معتقدهم تشويش) ، وهو تعبير يحمل بدوره تشويشا على التعريف بدينهم الحقيقي. وهي ونحن نجد لدى العمري صيغة مطابقة لصيغة الإدريسي حين يقول (وأرض قمنورية كان بها من السودان أمة تزعم أنهم يهود) .

ويلاحظ بعض الباحثين صعوبة الحسم في دين أهل قمنورية وطبيعة معتقداتهم وذلك لغياب أي معلومات غير تلك التي أوردها منفردا الإدريسي عنه اللاحقون عليه مثل العمري والحميري وابن خلدون، وفي صيغ لا تسهم مجتمعة في تأكيد أو نفي اليهودية عنهم بشكل يقيني وحاسم، وحيث لا نجد مقارنة تسمح لنا بمعرفة طبيعة التشويش المعبر عنه في رواية الإدريسي أو مصدره، وفي هذا الإطار يورد بعض الباحثين (غياب أي إشارة لبلاد قمنورية عند البكري رغم كونه يعتبر أهم مؤلف جغرافي تحدث عن صحراء الملثمين خلال القرن الخامس الهجري، كما يلاحظ غياب حديث الزهري عن تلك البلاد أيضا خلال القرن السادس الهجري، في حين سننتظر الى ان ينقل العمري ت749هـ/1348 والحميري من اهل القرن الثامن للهجرة، رواية الادريسي عن بلاد قمنورية، مستخدمين عبارات تؤكد ارتيابهم في كون اهل قمنورية يهودا، بل وتفصح في شكهم في تلك الرواية التي نقلوها، بقوب الادريسي "وأهل قمنورية فيما يذكره التجار يدعون أنهم يهود، وفي معتقدهم تشويش" ، وتصريح العمري "وأرض قمنورية كان بها من السودان أمة تزعم أنهم يهود" ، وإيراد الحميري"وأهل بلاد قمنورية يذكر التجار أنهم يهود") .

ورغم شيوع القول عند الباحثين الغربيين والمحسوبين على اليهود عموما بعبرانية سكان قمنورية ومن دون مناقشة التشكيك الذي تفيد به صيغة الادريسي بنسبته إلى التجار مع التصريح في نفس الصيغة بوجود تشويش فيه وبما يفيد عدم انسجامه كليا مع المتعارف عليه في المعتقد اليهودي في نقاط جوهرية أملت على الإدريسي – بناء على ما يفهم من صيغته – اعتباره معتقدا خاصا (به تشويش) ضمن الدين اليهودي أو حتى متعارضا معه، فإن البعض من هؤلاء الباحثين مثل ماني تحفظ على يهودية أهل قمنورية ذاهبا أنهم فقط وثنيون ادعوا اليهودية، وذلك على أساس ما ورد في نص الإدريسي من استخدام عبارات يمكن أن يفهم منها ذلك.. من قبيل (يدعون) و(في معتقدهم تشويش) .

ج – العرق:

يمكن أن نناقش ما ذهب إليه الباحثون في سياق الأصل العرقي لسكان قمنورية على موقفين متمايزين، موقف يخص من ناقش هويتهم العبرانية دون ربطهم بمكونات أخرى، ويقابله موقف ثان يخص من اعتبرهم هم البافور، وبما يفرض مناقشة أصلهم بناء على أصل هؤلاء كما حدده الباحثون، حيث نظل فيما يخص هذا الموقف أو ذلك مع معطيات متباينة بعضها

يحسبهم على اليهود، فيما البعض الآخر يحسبهم على القبائل الليبية البربرية القديمة مثل الجرمنتيين، أو على الزنوج، مع وجود رأي آخر مركب يعتبر سكان قمنورية مولدين من أكثر من عرق.

وطبعا يظل من الشائع عن اليهود سعيهم للمحافظة على نقائهم العرقي، وعدم التزاوج أو الاندماج في مكونات عرقية أخرى ممن يتصورونها دونهم نتيجة اعتبارهم أنفسهم شعب الله المختار، مع التأصيل لهذه المعطيات في دينهم لجعلها ملزمة لكل يهودي في كل زمان ومكان باعتبارها وصايا مقدسة، وفي هذا الإطار نجد من يؤكد على هوية اليهود الميقيمين في الصحراء خلال العصر الوسيط الصحراء وذلك بربط نسبهم باليهود بشكل صريح وجازم باعتبارهم من نسل سيز جوج بن طيراق اليهودي، الذي ينتهي أصله إلى يهود خيبر ، وذلك في مقابل القول الداعم ليهودية سكان قمنورية كما أفاد بذلك الحميري الذي يذكر قطعية التجار المسافرين إلى الصحراء بيهوديتهم بقوله (وأهل بلاد قمنورية يذكر التجار أنهم يهود) . إلى جانب ما ذكره الإدريسي والعمري من يهوديتهم مع وجود تشويش في معتقدهم وبلا نستطيع معه أن نحدد هل صحة يهوديتهم تنسحب على نقاء انتماءهم العرقي لليهود فقط ووجود تشويش على مستوى المعتقد، أم أن صيغة الظن تنسحب على المعطين معا (الهوية العرقية + الهوية الدينية).

وطبعا سيقول بعبرانية سكان بلاد قمنورية وفق الصيغة الأخيرة مجمل الباحثين الغربيين واليهود الذي كتبوا عن منطقة الصحراء وبلاد السودان، والذين حاولوا الجمع بين معطيات إثبات نسب يهود الصحراء الذي قال به العمراني ووجود حواضر لهم طورها أولئك الباحثون إلى ممالك في أكثر من منطقة كقمنورية ولملم وليمي وغانة وتندرمة، ليؤكدوا حضورا يهوديا بالمنطقة تحصل باستمرار على ما يغذيه من عوامل الرغبة الجامحة لليهود لتحصيل الربح – جراء إغراء المعدن الأصفر لهم – كصاغة وكتجار مما كان يحفزهم على دخول الصحراء والسودان والاستقرار بهما، وتغذية حضورهم هناك بهجرات قديمة ومتجددة بفعل النكبات المستمرة التي ظلت تلاحقهم في مناطق قريبة في الأندلس والبرتغال والمغرب الأقصى مما كان يدفعهم للاحتماء بمناطق بعيدة من الأخطار التي تواجههم أو الالتحاق بممالك وتجمعات تخصهم في الصحراء والسودان .

وطبعا يفهم من كل ذلك الذهاب إلى محاولة المزواجة بين معطيات الحضور اليهودي التجاري والحضور الديمغرافي وتطويرهما في اتجاه خلق إطار سياسي في قمنورية وغيرها، وهو معطى يبدو أن اليهود عرفوا كيف ينتبهون إليه لتعزيز تجربتهم في الصحراء كتجار وكلاجئين وكمؤسسي كيانات سياسية في أكثر من مكان، وبما قاد سلوش إلى الحديث عما أسماه (الهيمنة اليهودية في الصحراء وبلاد السودان) .

وسيصل بعض هؤلاء الباحثين إلى نتائج غريبة تذهب بهم الى إعلان المحافظة على الأصل اليهودي ليهود الصحراء والسودان الذين أجبروا على تغيير دينهم، واحتسابهم على العرق العبراني حتى وهو مسلمون، حيث سيتحدث ويندسور بهذا الخصوص عن وجود العديد من القبائل في الصحراء والسودان خلال العصر الوسيط (مسلمون في الدين لكنهم عبريون في الجنسية) ، قبل أن يعود ويشدد على (أنهم غير يهود بالدين لكنهم على دراية بأصلهم العبري وهو ودودون للغاية مع

التجار اليهود) . فهل يعني هذا أنه كان يؤسس لمعطى يخدم الحاضر من خلال فتح المجال أمام كل من يثبت أصله اليهودي من سكان الصحراء والسودان إلى الرجوع ليهوديته ومصالحته بالتالي بين جنسيته وعرقه كما حصل مع الباحث إسماعيل ديادي حيدرة الذي تحول من الإسلام إلى اليهودية مدعيا أنه يعود بذلك لهويته الأصلية وهي اليهودية .

ونحن نجد من بين الباحثين من يصنف أهل قمنورية على أنهم هم البافور أو أنهم جزء من مجموعاتهم، وهو ما سيقود إلى انحدارهم من مكونتين عرقيتين مختلفتين حسب الموقف من أصل البافور، حيث يتعلق الأمر هنا بموقف من يحسبهم على القبائل الليبية البربرية القديمة مثل مكونة اسم البافار والتي كانت نشطة في المغرب الأقصى خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين وذلك قبل أن تهاجر إلى منطقة آدرار الموريتانية وتحور اسمها إلى البافور ، حيث سنجد من بين الباحثين من يقسم البافور بعد حضورهم إلى المنطقة على أساس لون البشرة إلى مجموعتين متمايزتين: مجموعة بيضاء وأخرى سوداء اختصت بحمل اسم (البرابر) .

فيما من بين أهم الآراء التي يمكن أن تفيدنا في تحديد الأصول العرقية لسكان بلاد قمنورية، اعتبارهم على غرار البافور مجموعة زنجية من بين مجموعات سودانية انتشرت في فترات قديمة في المنطقة الواقعة بين الصحراء وجبال الأطلس قبل أن تضطرها قسوة الظروف المناخية المتمثلة في وطأة الجفاف إلى الهجرة إلى مناطق وجود أهل قمنورية في موريتانيا خلال العصر الوسيط ، وذلك في معطى جعل الباحث زربو يميل إلى الاعتقاد بأن البافور هم مجموعة زنجية انحدرت منها لاحقا شعوب سودانية متعددة أبرزها الماندي والتوكولير والولوف والسرير .

غير أننا نبقى نجد في المقابل من يعارض الطرح القائل بنسبة البافور (وهو ما ينسب على أهل قمنورية وفق القائلين بانتسابهم إلى هؤلاء) إلى اليهود لينفي عنهم الانتماء إلى الأصل العبراني، وذلك على غرار من اعتبرهم امتدادا لقبيلة البافار الليبية وبالتالي غير يهود، حيث تذهب بيغادو في هذا السياق إلى اعتبار أن علاقة جمعت بين البافور واليهود في مناطق استقرارهم بموريتانيا تتمثل في الأساس بالتأثر منهم عن طريق المصاهرة والجوار .

وهو معطى جرى تطويره من قبل الأستاذ زيرو فيما بعد في اتجاه أن يقرر أن البافور – وعلى شاكلتهم من يحسب عليهم من قبل الباحثين كسكان قمنورية – مجرد مولدين يجمعون بين أكثر من عرق، وبحيث يكونون في المحصلة نتيجة تزاوج حاصل بين الزنوج ومجموعات متهودة من البربر .

وما يمكن ان نخرج به من هذه المناقشة أن غياب الحديث في المصادر التاريخية عن أصل سكان بلاد قمنورية ومكونة البافور التي ربطها بعض الباحثين المعاصرين بشكل رئيسي بهم، أسهم في تعدد الآراء عن أصولهم، وبما جعلنا أمام مجموعة من الآراء يتعذر إن لم يكن من المستحيل إيجاد صيغة معينة للتوفيق بينها، فالحديث عن يهودية أهل قمنورية يقابلها في نفس المصدر الأبرز الذي نقل لنا ذلك تشكيك في صحة تلك اليهودية وذلك بإيراد صيغة تفيد عدم الجزم، والذهاب لربط سكان قمنورية بالبافور وأصولهم يضعنا أمام ثلاث نتائج متضاربة، أحدها يقول بأصولهم الليبية البربرية، وثان يقول بأصولهم

السودانية، في مقابل رأي توفيقي ثالث يعتبرهم نتاج تزاوج بين المكونتين السابقتين، وهي نتيجة وإن كانت تمثل رأيا توفيقيا يخص معطى البافور إلا أنها تتعارض كليا مع الرأي القائل بيهودية سكان قمنورية كما عند من يقول بها، لتكون المحصلة عدم تحصيل نتيجة يدعمها المنطق بهذا الخصوص لأصول موثوقة لسكان قمنورية.

وربما أن السر الذي ضاع مع أهل قمنورية بخصوص عرقهم وديانتهم، لا يضاهيه في الغموض إلا سر التكالب عليهم من أكثر من مجموعة واعتبارهم مكروهين ومنبوذين من قبل الجميع ، حيث هم وفق تعبير الإدريسي (في معتقدهم تشويش وليسوا بشيء ولا على شيء،.. بل هم ممحونون من جميع الطوائف المجاورة لهم) ، وبما قاد إلى استئصال شأفتهم من قبل أعدائهم بعد أن (توالت عليهم الفتن والغارات من جميع الجهات فقلّوا في تلك الأرض وفرّوا عنها واعتصموا في الجبال وتفرقوا في الصحارى ودخلوا في ذمة من جاورهم وتستروا في أكنافهم، فلم يبق من أهل قمنورية إلا قوم قلائل متفرقون في تلك الصحارى وبمقربة من الساحل عيشهم من الألبان والحوت وهم في نكد من كد العيش وضيق الحال وهم ينتقلون في تلك الأرض مع مهادنة من جاورهم ويقطعون أيامهم مسالمة إلى حين) .

ونحن لا نستبعد على ضوء العبارات التي تفيد التحامل في كلام الادريسي عليهم حين يعتبر معلقا على ديانتهم اليهودية وما فيها من تشويش (وليسوا بشيء ولا على شيئ)، فهذه العبارة لا يمكن أن تصدر من جغرافي موضوعي مثل الإدريسي إلا عن غضب من سلوك أو موبقات أخلاقية يقرها هذا الشعب، تبرر تحامله هذا عليهم، وتفسر ذلك الحنق وتلك الموجدة عليهم من قبل جيرانهم، وحرب الجميع لهم، فضلا عن القسوة التي تعاملت بها لمتونة معهم بهدف تصفيتهم .

وربما سيبقى الأمل معلقا على البحث الأنتربولوجي أكثر من غيره لدراسة بعض المجموعات المعتبرة كبقايا لسكان قمنورية والمتمثلة أساسا في مجموعة ايمراكن ومجموعة النمادي ، وبما تدعمه ملاحظات الإدريسي بهذا الخصوص (فلم يبق من أهل قمنورية إلا قوم قلائل متفرقون في تلك الصحارى وبمقربة من الساحل عيشهم من الألبان والحوت وهم في نكد من كد العيش وضيق الحال) . مع ما يمكن أن يقدمه علم السلالات بهذا الخصوص من خلال مقارنة رفات هذه المجموعات المحسوبة على سكان قمنورية مع رفات تجمعات البافور وما سواها في مناطق تواجدهم خلال العصر الوسيط.

الخاتمة:

يمكن أن نجمل أهم ما نخرج به من ملاحظات واستنتاجات على ضوء مناقشة المعطيات المتوفرة عن سكان بلاد قمنورية في المصادر التاريخية وفي دراسات الباحثين، في الملاحظات التالية:

خضوع إيراد المعلومات ومناقشتها للمزاج والموقف الشخصي فالإدريسي الذي ساق صيغة قوية للتحامل عليهم (ليسوا بشيئ ولا على شيئ)، وأورد أهم المعلومات المتوفرة لنا عنهم، لم يكلف نفسه بشرح حيثيات موقفه منهم، ولا بالتفصيل أكثر في معلوماته بصورة ترفع اللبس عن هوية وأصول سكان قمنورية ومرتكزات معتقدهم، فيما لم يكلف من نقل عن

الإدريسي من اللاحقين عليه من أًصحاب المصادر أنفسهم بإيجاد إضافات من أي نوع على جاء به عن بلاد قمنورية حيث جرى الاكتفاء بالتالي من قبلهم على إيراد فقرات صغيرة من نصه.

نجد معطى المزاج والبعد الذاتي حاضرا أيضا عند الباحثين الغربيين الذي كان همهم بالأساس الانحياز لصالح إثبات وجود طاغ لليهود بالصحراء، وهو ما يتمثل في عناوين بحوثهم المركزة على وجود اليهود في الصحراء والسودان، والتأسيس لذلك بتفسير مجانب للحقيقة أحيانا.

يمكن اعتبار معطى اللون في سبيل تحديد هوية سكان قمنورية هو المعطى الأقرب للحسم فيه على أساس المصادر، وذلك بكونهم زنوج أو بشرتهم في حكم بشرة الزنوج من حيث اللون، حيث أن الاعتراض الوحيد على ذلك جاء من قبل باحث واحد في إطار سعيه للربط بين سكان قمنورية والبافور.

يظل معطى اعتناق سكان قمنورية لليهودية مشوشا في ظل الصيغة التي أوردها الإدريسي الذي أخبر عنهم، وبما يبقى من الصعب تجاوزه بأعمال الباحثين الغربيين واليهود الذين ذهبوا لتأكيد يهودية أولئك السكان وربطهم بوجود يهودي اقتصادي واجتماعي وسياسي مكثف في الصحراء، وذلك لما تقيمه من تحفظ وتحامل صيغة الإدريسي في وجه إثبات يهودية موثوقة لأهل قمنورية.

يبقى معطى الأصل العرقي لسكان قمنورية خاضعا فقط للنتائج التي أسفرت عنها الفروض البحثية في دراسات الباحثين، وذلك في ظل انعدام أي حسم على أساس المصادر بهذا الخصوص، وبما يصعب معه التسليم بالنتائج المتعددة والمتعارضة والتي منها الأصل اليهودي، والأصل الليبي – البربري، والأصل السوداني، والأصل الهجين.

لعل أهم نتيجة يمكن أن نخرج بها من كتابات الباحثين الغربيين هي أن اختفاء قمنورية كان في إطار الحملة التي قام بها البربر بعد اسلامهم ومعهم التجار المسلمون لتصفية الحضور اليهودي تجاريا واجتماعيا وسياسيا في الصحراء وبلاد السودان، سبيلا للاستئثار بالاستفادة من تجارة الذهب في السودان التي حاول اليهود احتكار فوائجها لأنفسهم بالانتقال إلى الصحراء وتأسيس مراكز تجارية والسيطرة على أخرى سبيلا لذلك.

سيكون علينا تعميق البحث أكثر لنستطيع الخروج بنتيجة يمكن الاطمئنان إليها بخصوص هوية أهل قمنورية، وذلك بتركيز دراساتنا على مزيد من معطيات ومقاربات الباحثين المطورة لما وجدوه أمامهم من نتائج بحثية حتى الآن، وذلك شرط أن لا تتعارض تلك النتيجة مع أهم مصدر لدينا حتى الآن عن قمنورية المتمثل في نص الإدريسي عنها.

المراجع:

أ – المصادر:

– ابن الوردي، سراج الدين أبو عمر، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحرير وتقديم حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014،

– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق كاترمير، عن طبعة بارس 1858، مكتبة لبنان، 1992،

– الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودى، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983

– الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، مطابع هيد لبوغ، بيروت، ط2، 1984

– العدواني، محمد بن محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996

– العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010

ب – المراجع:

– ابن أحمد يورة الديماني، محمد، إحبار الأحبار بإخبار الآبار، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1992

– ابن باباه، محمذن، تحقيق نصوص من التاريخ الموريتاني، دار الحكمة، قرطاج، 1991

– بوعمامة، فاطمة، اليهود في المغرب الأقصى خلال القرنين السابع والثامن الهجري، الجزائر، 2011م

– غرياني، بطل شعبان محمد، دور اليهود في التجارة غبر الصحراء خلال العصر الإسلامي بين الادعاء والحقيقة التاريخية، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، ع 28، يناير 2023

– مراد، حسين، دولة اودغست الإسلامية من القرن الثاني إلى القرن الخامس للهجرة، القرن الثامن إلى الحادي عشر للميلاد، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد 46، القاهرة، 2008

- ولد الحسين، الناني، صحراء الملثمين وعلاقتها بشمال وغرب مؤسسة كنوز الحكمة، فريقيا من منتصف القرن ق 2هـ 8م إلى نهاية ق 5 هـ/11م، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007

ج – المراجع الأجنبية:

-Andriamirado, Sennen: Juifs, noirs, et maliens, Jeune Afrique 1879 (8–14 January), 1997, p.21.

-Ba, Idrissa: Continuité ou discontinuité de la présence juive à Walâta et dans le Sahel ouest africain du XVe au XIXe siècle, Outre-Mers, T. 96, N° 358-359, 2008, p.184, Benson, Tony: Jews in Timbuktu, The Testimony Magazine, January, 30, 2000, p.30.

-DELACHAPPELLE. Author. "Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale" in Héspéris Tamuda, TXI, Rabat. 1930

-Palmer ،H. R , "M. Delafosse's Account of the Fulani". Journal of the Royal African Society, 1914, t13, n50 ; pp 195- 203

-KI-ZERBO (Joseph): Histoire de l'Afrique noire d'hier demain ،Hatier ،Paris ،1972

-LEWICKI, Les origines de l'Islam dans les tribus Berbères du Sahara occidental: Musa Ibn Nusayr et Ubayd Allah Ibn Alhabhab in STUDIA ISLAMICA ،1970, vol. 32 , pp. 203-214.

-MAUNY, Raymond, Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen-Âge ،d'après les sources écrites ،la tradition et l'archéologie ،Mémoire de l'IFAN ،N61 ،Dakar ،1961., p. 427

-Mauny, Raymond: Le Judaïsme, les Juifs et l'Afrique occidentale, Bulletin de l'institut Français d'Afrique Noire, T. XI, 3-4, 1949, pp. 262, 263

-MEUNIE. Jacques. Le Maroc saharien des origines a 1670, Librairie KLINCKSIECK, Paris. 1982

-MODAT. "Les populations primitives de l'Adrar mauritanien", in, B.C.E.H.S. de l'A.O.F. 1919, t.1

-Oliel, Jacob: Juifs et Noirs en Afrique de l'Ouest ; Pardès , N° 44, 2008

-PUIGADEAU. Odette du. Les grandes foires des dattes - Adrar mauritanien .Librairie Plon. Paris. 1936

-Slousch, Nahum: Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, Archives Marocaines Publication De La Mission Scientifique du Maroc, Paris, 1906, Volume VI,

-Windsor. Rudolph ,From Babylon to Timbuktu: a history of the ancient black races including the black Hebrews, internetarchivebooks; printdisabled, 1988